سؤال الدين في شعر أدونيس

أ.م.د. جاسم حميد جودة
جامعة بابل/كلية التربية للعلوم الإنسانية
jassem@yahoo.com

سالار سليم الخواجه
جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الانسانية
salarss@yahoo.com

ملخص البحث :

الدين، أحد أهمّ الأسئلة التي مازالت تثير نقاشا واسعا في أفق الثقافة التي يكتب أدونيس برموز لغتها، إذ قصد أدونيس، شعريا، مساءلة الدين من حيث هو فكرة عليا ومن حيث تمثله على نحو صريح في الأديان التوحيدية المعروفة، مستغرقا نظره في الفهم التقليدي والثابت داخل هذه الأديان. مثلما انتقدت أسئلته مآل مثل هذا التعاطي التقليدي في صياغة واقع هذه الامة التي استعاضت تدريجيا عن السؤال وفعل التساؤل بالتصالح المطلق والقبول التام لجميع المقولات النهائية التي كتبتها وسوقتها المنظومة الفقهية على انّها الشكل المناسب والوحيد للحياة في هذا العالم.

الكلمات مفتاحية : السؤال، الدين، أدونيس، شعر ، حجاب، تعاليم، تحريم، السماء، الأرض، الغيب .

Abstract :

Religion, one of the most important questions that still raise a wide debate in the horizon of culture, which writes Adonis symbols of language, as Adonis, poeticly, the accountability of religion in terms of a higher idea and in terms of explicit representation in the monotheistic religions known, taking a look at the traditional understanding and hard within These religions. As his questions criticized the fate of such a traditional approach to the formulation of the reality of this nation, which gradually replaced the question and asked the question of absolute reconciliation and full acceptance of all the final statements written and market jurisprudence as the only appropriate form of life in this world.

Keywords: religion, adonis, poetry, veil, teachings, prohibition, heaven, earth Unseen.

لا شك بأنّ سؤال الدين هو من الأكثر الأسئلة توترا؛ لأنّ الأديان تتبني جوهريا على ادعاء الحقيقة التي هي إجابة نهائية عن كلّ شيء ومن ثم لا تعيش في حدود هذه الإجابة(الحقيقة)فقط، إنّما تعمل على حمايتها من كل سؤال، لأنّ التساؤل هو شك مباشر في ثبات هذه الحقيقة ومصداقيتها. لذلك فإنّ السؤال يزيد عن حاجة الدين أو عن حاجة المعتقدين به دوما.

ولأنّ الشأن الديني هو " شأن تاريخي واجتماعي وثقافي ونفساني "[١] في الوقت نفسه، فإنّ أفق السؤال سيضيق شيئا فشيئا في نطاق هذه المستويات، التي تحقّقه على سبيل الفعل أو الممارسة. ولأجل ذلك قد يصبح الفرد المؤمن في تناحر بين إيمانه وطاعته من جهة ونزوعه نحو التساؤل الذي هو قوة عقلية أو نفسية هائلة يحاول الدين ردمها من جهة مقابلة؛ وأنّ الأمر ببساطة شديدة " إذا كنت مؤمنا، فإنّ هذه الطريق لا تستدعي أي سؤال "[٢] ، عندما انحرف الدين عن جوهره على يد المتدينين وتحوّل من كونه تجربة انتماء هادئة و حرّة إلى برنامج صارم من الدعوات والأنشطة والفروض، التي طوّعت الفرد وحوّلته إلى مجرد شيء تابع، لجماعة، وسخرت من عقله، الذي قتل الله والإنسان لاحقا وإلى الأبد؛ لأنّ

الله لا يوجد خارج الإنسان فهما " يخلقان بعضهما البعض "[٣] ، بمعنى أنهما يجربان طريقا واحدة نحو المعنى أو الغاية، وهذا هو التمرين الأقصى لما يسمى بالدين الطبيعي الذي يرتكز على العقل كمصدر ومعيار معرفة لا على ردمه وتغييبه. إذن، يمكن القول أنّ " ليس للدين مضمون خاص به، ولا يوجد في الدين إلّا ما يوجد في الإنسان في وعيه بذاته ووعيه بالعالم "[٤] ، أي أنّ معيار التديّن هو أمر فرديّ و خاصّ. بمعنى لا يمكن للدين أن يتجلّى على نحو متطابق عند الجميع، مثلما لا يمكن للإنسان ما أن يتمثّل دينيا على النحو الذي يتمثّل به آخر. من منطلق أنّ الدين هو إمكانية مفتوحة ومتوقفة على طاقة الفرد في استيعابها، من غير أن تكون مشروطة بما يتعارض مع طبيعة البشريّة. بحيث يصبح الدين مصدر إرهاق لها. وبسبب متصل بهذا، استعصى تعريف الدين، وانّ كل التعريفات المطروحة هي من طبيعة تقريبية، تستند في تحرير نفسها إلى منظورات محددة. ويمكن القول إجمالا بأنّ الدين هو " موقف خاص يتخذه العقل البشري "[٥] إزاء قوة لا يعرفها إلّا أنّه لا يبارحه الشعور بالمراقبة أو التهديد. هذه القوة سميت (الله) في مراحل متقدمة من عمر الإنسان، واحتفظت هذه الفكرة بحيويتها الكاملة لأنها ظلت غامضة أو مجهولة، مثلما احتفظت بصلاحية مطلقة للتفكير فيها.

ثم تطور الشكل البدائي للدين و " تحول إلى عبادة الأسلاف التي تطورت إلى الاعتقاد في تعدد الآلهة ثم تطور أخيرا إلى التوحيد "[٦] ، وعرفه فرويد على أنّه نوع من " العصاب الجماعي "[٧] ؛ أي أنّه اسقاط نفسي وذهني لما يعانيه البشر من العقد، فهو من صنع خيالاتهم ليس أكثر. أو هو نوع من الدعم المعنوي لهم؛ لأنّ الإنسان بحاجة إلى فكرة عليا تهوّن من شعوره بالوحدة في هذا العالم، لكنّ المسألة تعقّدت مع اشتعال الصراع بين الأديان التوحيدية، التي غادر معها الدين كلّ معانيه النبيلة وأصبح سلطة ايديولوجية تكدّس المزيد من الفتنة والفظاعة والأباطيل عبر تقويله ما بلغ حدّ السخرية، وتجدول في قائمة بالمواعيد والواجبات على نحو مزعج وابتعد عن كونه أداة في " تحويل الذات إلى كامل طاقتها عبر الوعي الحقيقي بمنهجية الخلق الكوني واستمداد حكمته في الممارسة "[٨] ، بمعنى هو واجهة أو وسيلة للتفكير في العالم واستعادة صفاته الرائعة بوصفها قيما كونية أخلاقية لتمكين البشر من العيش معا فيه. عندئذ، يصبح كل إنسان متدنيا بالضرورة من جهة تفكيره بالعالم أو بالكون.

لا يخفي أدونيس تحرره من الانتماء لأي دين، بل هو يقف في الجهة المقابلة له التي هي ضده تماما، هو ضده؛ لأنّ الدين اتباع في جوهره وقبول، ولأنّ الفرد لم يعد هو نفسه، بل هو من حيث طاعته الكلية لجماعة واحدة لعقل واحد لمعنى واحد، بمعنى لا وجود للفرد أصلا، إذ يتم تذويب الأنا التي " يتعذّر تمييزها عن النحن "[٩] في نطاق الجماعة ومصالحها، من هنا، وكنوع من الحذر الأمني سيقطع الطريق لا على أسئلة الفرد الخاصة، إنما على أي نوع من الأسئلة، وهذا كله يتعارض مع جوهر الابداع الذي يقوم على الفردية، وعلى الأسئلة التي تحمل عذابات وتناقضات الذات الخاصة.

كدّس أدونيس أسئلته حول الدين وما يتصل به في نصوصه الشعرية، التي هي مراجعة لأهم ما أُغفل في أفق هذه الثقافة. يقول :

" – الدين ؟ طبعا . هو، في آنٍ، من الطبيعة ومما
وراءها . الكتابة التي تغيّب الانغمار في الغيب ومشكلاته ،،
تغيب الطبيعة وما وراءها . ألن تكون إذاً، هي كذلك ،
مجردة وجرداء ؟ ألن تخون الغيب واللغة والانسان / ألن

تخون الطبيعة ؟ "(١٠)

ثمة ما هو إشكالي دوما في مثل هذا السؤال وأجوبته، الدين؟ هو من أكثر الأسئلة التي تستدعينا للتفكير وإعادة الكتابة في خصوصها، فهو هذا الخيط الرفيع بين عالم المرئي واللّامرئي، فهو من الطبيعة ومما وراءها؛ لأنّه يتحقق في نطاق حركة البشر فيها، ممثّلا لأقصى انفعالاتهم إزاء ما هو أبعد أو أكثر تحديا منها . وإنّ الكتابة التي تتجاوز الغيب في أفقها ولا تهتم بطرح الأسئلة المناسبة حولها، هي كتابة مشوَّشة حتما؛ وكأنّ كل كتابة هي مفرغة من كل قيمة إن لم تحاول المشي في هذه المنطقة من المعنى، وهي الغيب أو الدين.

ولأن علاقة البشر بالغيب لا تكون إلّا من ناحية اللغة، وأنّ الدين هو سردية لغوية أوّلا، وبها فقط، يتم نفي أو إثبات فكرة الغيب أو الالوهة، يقول :

" كان إلهٌ سومريٌّ يصغي إليَّ فيما يبلّل قدميه بالماء الذي
يوحّد بين دجلة والفرات .
هل صحيحٌ، أيّها الرّبُ الصّديق أنّك همستَ
مرّة لزوجتك : '' صعبٌ على الرّب نفسه ،
في هذا العالم، أن يكونَ نفسه ؟ ''
فجأةً ،
هبط علينا حشد من الملائكة، وأخذ يرجمُ اللغة .
ولئن كان الكلام نارا، فالصّمت أوّل الجحيم "(١١)

وليس هناك، ما هو أخطر في هذه اللغة من ممارسة السؤال، فكيف لمن ابتكر العالم أن يضيع عن نفسه فيه؟ وكيف ، إذا، كيف للمبتكَر أن يكون هو نفسه، وأن يبقى ثابتا في عالم متحول في كل شيء؟ لأجل ذلك، تحضر الأديان الأسئلة التي تبلور نمطا تحديثيا في التفكير حول مفهوم الإله.

ويطرح أدونيس سؤالي المقدس والغيب على نحو مطلق مجيبا عنهما :

" ما المقدّس ؟
قناعٌ
للاحتفاء بالمُدنّس "(١٢)

إذ يجرّد بإجابته السؤال من كلّ اضافة أخلاقية مزعومة حول أي نوع من المقدسات، وأنّه ليس أكثر من عملة ترتفع وتنخفض قوتها في سوق الاتجار بالأديان وبمقدّساتها، وإلّا لماذا لا يكون المقدس مقدّسا إلّا إذا كان من طبيعة دينية؟ مع هذا السؤال المرفق بإجابته، يتضح لنا أن المقدس، ليس أكثر من فكرة مصنوعة أو " ليس سوى ثمرة من ثمار ايديولوجيا الطبقة المسيطرة "(١٣) يتمّ تداولها من طرف هذه الطبقة لتسويق ما تسميه هي نفسها مدنّسا، بحسب ما ينسجم مع مصلحتها في الزمان والمكان المعينين.

" ما الغيب ؟
بيتٌ نحبّ أن نراه ،
ونكرهُ
أن نقيم فيه "(١٤)

وهذه حقيقة أخرى يطلقها السؤال عبر إجابته، تكشف المزاج الحقيقي للأرواح الحرّة من دون أي مخاتلة لغويّة. ولا شكّ بأنّ الغيب " يضفي معنى وغاية متعالية على الحياة "[١٥] ؛ إلّا أن الاقامة فيه مطلقا، تبدو مسألة متعذّرة على البشر، فهو بوصفه موضوعا خارجيا يمكنه أن يكسبنا التفكير فيه المزيد من المعاني، بوصفه بعدا أو طرفا ضمن أبعاد أو أطراف أخرى، لا أنّ يكتفي المرء بالحياة إلّا من حيث هي فرصة لبلوغه.

ومن ناحية قريبة من هنا، يقول :

" اذهب إلى العبارة واسألها بتواضع :

ماذا ينقصني ؟

أخاطبكَ أنت يا من تقول :

لا شأن لي إلّا بالدِّين "[١٦]

أي، ماذا ينقص من لا يهتم إلّا بالدين؟ وليس لمثل هذا السؤال من إجابة واضحة يمكن الاستعانة بها مؤقتا في مناقشة المتديّنين الذين يحملون السؤال من جهة معاكسة تماما، ليسألوا: ماذا ينقص من لا شأن له بالدين؟ ويستحيل فصل خطوط مثل هذه التساؤلات في ظل الخلط بين الدين بوصفه مفهوما مجردا وكيفيات التديّن التي تحوّل الطقس الشكلي إلى أداة انتقامية تسلخ الفرد من طبيعته البشرية.

يقول :

" كان آلهة اليونان وأولئك الذين سبقوهم

أو عاصروهم ،

يهبطون من سماواتهم على الأرض ،

لكي يسترقوا النظر إلى امرأة تستحمّ ،

أو لكي يقبّلوا يدها .

لماذا ، إذاً ، يُصرّ بعضهم أنّ الألوهة

موجودةٌ في حركة دائمة من الصعود ؟ "[١٧]

يحاول السؤال هنا، كسر المسار النمطي لفكرة الالوهة، متخذا من آلهة اليونان وما جاورها مثالا لنفي التصورات الشائعة عن فكرة الالوهة محاولا نزعها من نطاق التعالي الذي علقت فيه أبدا ومنحها إمكانيات أو صورا أخرى في ذاكرتنا نحن البشر.

ويتساءل :

" ما الإلهُ ؟

كل ما كان سواهُ .

ما المغيّب ؟

حاضر بالظنِّ، بالخوف يُطيّب "[١٨]

يحمل السؤالان حدوسا شكيّة لا تنكر بقدر ما تقول الجانب الغامض من الفكرة، وهنا تستتر جدوى الأسئلة في إفزاع العقول عبر تنوير تلك الجهة المنسيّة منها دوما.

يقول:

" – ما تكونُ الذات التي تحيا في آنٍ ضحيّة وجلّادا ؟

- لستُ مسؤولا إلّا أمام وعد الله .
- لكن ، من ليس مسؤولا إلّا أمام وعد الله ،هل يقدر أن يكون مسؤولا عن نفسه هو؟
- ومن ليس قادرا أن يكون مسؤولا عن نفسه ، من تُراه يكون؟
- ما بال العقل الذي يسخر من الأساطير، وممّا تقوله عن حرب الآلهة فيما بينها ، في السّماء، يجعل من البشر أنفسهم آلهةً على الأرض، يدمّرونها، ويملأونها حربا باسم السماء ؟
- ما هذه السماء التي تلبس البَزّة العسكريّة، وتقف مع بشرٍ لكي يقتلوا بشرا آخرين ؟ "(١٩)

تحاول هذه الأسئلة استيضاح العلاقة الملتبسة بين ما هو بشري وما هو ديني أو سماوي(بوصف السماء مسكن الإله) واختلاط معايير هذه العلاقة حين يتطرف الإنسان في اعتقاده بالواجب، واجب حماية السماء، فيتحول إلى حارس لكل المعاني والطقوس التي تصنع سياجا تأويليا ليحفظ هيبة هذه السماء. ويصبح هذا الدور هو مسؤوليته الأخيرة في الحياة ومن ثم فهو لا يقول ولا يفعل إلّا ما يتم تبريره داخل ما يسمّيه الدين. ولكن من يحفظ هيبة السماء سيخسر هيبته هو؛ لأنها من المغالطات الكبرى التي وقع في فخّها الإنسان، حين يُجنّد نفسه كليّا في خدمة الدين، في الوقت الذي على الدين أن يتكفّل بهذه الخدمة تجاهه.

ويبدو أنّ الاقتتال حول أحقية الظفر بالسماء هو قديم ومازال، واللافت في ذلك كلّه؛ أنّ المعركة هي هي بدوافها وغاياتها في الميثولوجي والراهن على حدّ سواء، وليس هناك ما هو أكثر طرافة من تلك المفارقة التي يستحيل فيها الإنسان إلى حيوان دموي من أجل أن يترفع عن دنس الأرض ويلتحق بقداسة السماء.

يقول :

" لكن ، ماذا يجدي أن أهرب إلى عريك، أيتها الدنيا ؟
لكن ، محتاج لكي أموت ، إلى سؤال أطرحه على الغيب ،
ولا وسيط لي ، وما أشقى أن أموت كأيّ حيوان إلهيّ "(٢٠)

ثمة مرونة من نوع خاص بين الشاعر والإله، يقترحها الشعراء لأنفسهم، إذ لا يجد الشاعر نفسه (وبوصفه فردا أوّلا)مضطرا إلى الوسائط مهما كان شكلها؛ لأنه غير تابع لأي مرجع وهو بوصفه مخاطبا يصغى إلى الله مباشرة

ومن دون وسيط يعترض هذه العلاقة(٢١) ؛ إلّا أنّ سرديات الفقهاء لا تفتأ من السخرية منهم وهي تحاول إخراجهم من هذه المساحة المخصوصة وتجريدهم من جملة الدنيا والآخرة معا.

ومن ثم لا شيء يورّق هذا الشاعر أكثر من انسداد أفق السؤال في وجهه، فيتحول حينها إلى مجرد ممتثل صامت مثل أي حيوان إلهي آخر.

وهل من منفذ سوى السؤال قادر على فتح ما ينغلق ويبس في ألواح ؟ :

" والطريقُ حصارٌ ، –

ما الذي يفتح الأرض إن أغلقت في سماء ؟

ثم يقول بعد سطور :

زمن ليس إلّا قيودا ، وأغلاقَ لفظ :

ما الذي يفتح الكلماتِ إذا أغلقت في كتاب ؟ "(٢٢)

ولأنّ مشروع أدونيس الشعري في جوهره هو تحريض على التساؤل وعلى صداقة الأسئلة، على نحو مباشر وغير مباشر، ومن منطلق هذا المبدأ يعرّج على الدين أو على ما تكرّس وأصبح بديهيا ونهائيا في الدين، وبسبب من السلطة التأثيرية التي يمتلكها الدين، تمكّن غالبا من فرض الحياة في شكل واحد وثابت، ولا نجاة لإنسان دون ذلك. حتى تتحوّل السماء إلى أشبه ببرج مراقبة على الأرض. ومن ثم لا معنى لأي شيء خارج المعنى الذي وفّرته مدونات الفقهاء بوصفه حقيقة مطلقة في كل زمان ومكان.

يقول:

" ما لهذي السماءْ

تتناسخ في خوذة ؟

من نسائلُ ، يا بحرَنا المتوسِّطَ ؟

سيناءَ في تيهها ؟

أم خواتمَ أمر ونهي ؟

أم دما يتدّفق من كتب الأنبياء ؟

طين آدم في حَيْرة

يتشنّج بين يدي ربّه "(٢٣)

هذه الأسئلة وأمثالها هي نوع من المجادلة أو النقاش مع كلّ ما يمسّ الوجهة الدينية للإنسان التي صدئت بفعل ركودها وبفعل المحاذير التي أحيطت بها، فتأتي هذه الأسئلة بوصفها أداة صقل فاعلة ومثيرة لهذه الوجهة.

يواصل أدونيس عبر السؤال معاينة ما يسمى بالدين والمتديّنين الذين تحوّل على أيديهم إلى هواية غير أخلاقية وتقنية مرتبطة بسياسة دنيوية محضة ثم أجّلوا دلالاته الأصيلة إلى وقت غير مسمّى :

" بشرٌ يسجنون الكتب المقدّسة في جرارٍ ملآى بالملائكة .

بشرٌ يحرقون المارقين ويسكبون بقاياهم في أمعاء الشياطين .

بشرٌ يطبخون النبوّات في نحاس الهياكل، وينشرون توابلها في

جميع أنحاء العالم .

'' أهذا دينٌ، أم هي دنيا تمتصّ عظام السّماء ؟'' ، يتساءل مارقٌ

قبيل أن يُحرق.

وأين المصوّر الذي يصوّر آلهة المؤمنين ؟ تسخر النجوم منّا كلّما

استيقظت . وكلّ ليلة قبيل أن تنام تترك بُقولها اليابسة في صحوننا ،

إمعانا في السخرية . بقرة السماء عاهرٌ ، ولا حاجة لكي نسأل :

أين ثيرانك أيّتها الأرض ؟ "(٢٤)

أهذا دين؟ السؤال الأكثر إلحاحا بالنسبة لكلّ الذين تجاوزا الملّة في معرفة الإله أو في عقد علاقة معه. وها هو يطرح بكل ما يتضمنه من الجرأة التي يحتاجها(مارق) للضحك على المتشدّقين بالانتساب إليه. هذا السؤال هو نوع من الرجم الأخلاقي في ديارهم، بعدما التفوا حول السماء مثلما يُلتّف حول عاهر، وهكذا أصبح الدين نظام قصاص بيد البشر لتصفية حسابات دنيوية لا أكثر.

هذا الوضع جعل من الغيب مجرد فكرة مزعجة وغير أمينة في النفوس :

" غيبٌ لم يُعطني من أبوّته إلّا شجرةً لا تظلّل ولا تُثمر .

حقّا ، الغيب للا أحدٍ ، والواقع لهيكلٍ يُرفع باسمه .

غيبٌ – خاتمٌ في يد البطش . أو في يد المصادفة .

ألهذا ، أيّتها الأيّام التي تخرج من إصطَبْل السماء ، تعرج

خيولك ، وتتصبّب عرقا ؟

ألهذا ، لا تقدر الغيوم التي تسيّجكِ أن تقدّم قطرة واحدة

لهذه الأرض التي تتشقّق عطشا ؟ "(٢٥)

أن يرتبط الواقع ارتباطا تامّا بالغيب هو مجازفة غير هيّنة أبدا، ما زال الناس يدفعون ضريبتها كلّ يوم، وعلى نحو مضاعف، أن يضحّي الإنسان بأرضه من أجل سماء أخطأ فهمها، ذلك حين جعل من الواقع نظاما مسيّرا بفكرة غير واقعية أملا منه في بلوغها أو معرفتها متساهلا أمامها عن معرفة نفسه، وهذه هي المفارقة العملية التي وقعت فيها الأديان التوحيدية.

ومن هنا، تشوّه مستقبل المؤمنين في هذه الأرض، وأوقعوا أنفسهم في حرج شديد، وهم يتدرّبون، أبدا، على الإقامة في السماء دون الأرض.

ما تقع فيه الأديان من مفارقات لا يمكن ترقيعها، هي ما تدفع البعض إلى إعادة النظر العاجلة في أدبياته الموروثة وفي مدى تنشيطها على مستوى الممارسة والعمل ، يقول :

" قال لي : ربيت على صداقة السماء . اليوم أكتشف أنني لا

أستطيع أن أجادلها أو أن أحاورها في أي شيء . ما جدوى

هذه الصداقة ، إذاً ؟

- العب . لا تتوقّف عن اللعب . اللعبُ أوّل السّماء "(٢٦)

لا جدوى من هذه الصداقة طبعا. كيف يمكن أن نتلمّس طريقها وهي تصمت عنّا ولا تكلمنا؟ هذه الأسئلة تأتي بعد صدمة الاكتشاف، حول ما يقال أو حول ما يتوجّه نظريا وبين الفعل أو الواقع، وهما تجربتان مختلفتان تماما، حين يحرّم

السؤال ويبتر كليّا من دائرة الاعتقاد، من منطلق أنّ الجدال يفسد الإيمان ويوقع في ما ليس لنا فيه، أي يوقع في الحرام. وأنّ أي دين يؤسس لمثل هذا التحريم، هو دين يسيّج نفسه بالخطر علم أو لم يعلم، ومن ثم لن يستطيع حماية هشاشته التي يخيفها عن السؤال. كي تبقى الجماعة المؤمنة قيد المعنى الواحد الذي تقرّر بغياب عقولهم؛ بأنّه المعنى المناسب لحياة هذه الأمّة. وعلى من يدين أن يدبّر حياته في حدود هذا المعنى أبدا. وبهذا أصبح الدين ضحية مع المتديّن نفسه بعدما تمّ استغلاله ايديولوجيا في اللحظة التي خرج فيها من مقام الأنبياء بوصفهم الحملة الأصليون له.

يقول :

" عالَمٌ يُصلب اليوم . آخرُ يُنكَرُ : من منهما الآن يخرج من
جُرحه ،
ويدخل في جرحنا ؟
أتراه السؤال انتهاكٌ ؟
أترى سكرةُ البحث كفرٌ ؟ وماذا
لو تنوّرتُ حبّي ، وأحطتُ بصحرائه ؟ وماذا
لو أسرْتُ الملائك في شهقاتي ، وساءلتها
وانحنيتُ على ظلماتي ،
وتشرّدتُ فيها ،
وساءلتها ؟
شهواتي تُجنُّ،
ومن أين يأتي لروحي هذا الشقاء؟
وأنا منكما،
أيها العالَمان، وألبسُ ما تلبسان –
الرِّداء الذي نسجته النبوّات
واستخلصته السماء ؟ "(٢٧)

لا يتوانى أدونيس في التنبيه لأهمية السؤال، بوصفه الأداة الاستثنائية في كلّ معرفة، فهو وسيلته في كشف زيف العالم وأجهزته، الذي لم يكتف فيه المتسلّط بالسيطرة على الأرض بل تعدّى ذلك إلى استحواذ السماء واحتكارها لجهة سياسته في هذا العالم.

إذن، من يكون السؤال مجاله أن يشقى عليه الالتحام بالعالم وإن أَلِفَ الالتحاق به من حيث الحياة فيه خطاب نبوي مستعار كليّا.

قد يتعذّر على الشاعر العيش في سور ديني، لأنّ الشاعر هو صديق السماء من دون وساطة نبي أو دين :

" كيف تمكن الحياة على أرض لا يتكلم فيها أحدٌ
إلّا السماء "(٢٨)

هذا السؤال موجّه إلى الأرض في المقام الأول؛ لأنّها لا تكتسب خلودها إلّا بالشعراء، وهي تطالبهم بتكريس معانيها في كلّ مرّة. وكيف يمكن أن تعقل الأرض أنّها هنا من أجل أن تسمع السماء فقط؟ وما لا يعرفه الذي يسعى في ترتيب الحياة على مقاس الكتب المقدّسة من أنّ الشاعر لا يخوض نضاله في الأرض إلّا بوصفه نبيّا؛ لكنّه نبيّ وثنيّ، خارج نطاق أيّ اعتقاد أو ملّة .

لكنّه في الوقت نفسه، لا يجد حرجا في نداء الله من دون إذن أي دين، ولا تحت أدبيات الدعاء الخاصة بمذاهب البشر، بل يناديه ويسأله؛ بوصفه تلك النقطة الخفية في روح الإنسان التي لا تغيب مهما جدّ في نفيها، يقول :

" يا ربّ، لم خلّصتنا وحدَنا
من بين كلّ الناس والكائنات ؟
وأين تُلقينا، أ في أرضك الأخرى،
أ في موطننا الأول
في ورق الموت وريح الحياة ؟ "(٢٩)

السؤال هنا، على لسان نوح بعد الطوفان، وهو يتساءل معاتبا ربّه على أنّ انقاذه هو
خلق جديد لهم؛ لكنّه لن يحمل من شقائهم شيئا، وهو سؤال مأساوي يتأرجح بين الخضوع والتمرد والطاعة والرفض، حاملا حيرة الأنسان أمام مصيره.

يقول :

" في يده قنينة خمر فارغة
هل سألت السماء إن كانت ترغب
حقّا في نبذ النبيذ ؟
أعرف أن الله غاضب علي ،
لأني لا أتوقف عن طرح الأسئلة "(٣٠)

السؤال مجازفة بحدّ ذاته، كيف إذا كان في نطاق ديني، وفي صدد محظور داخل محظور؟ هذه الأسئلة لا تزعج الله، بقدر ما تزعج الفقهاء، ومن يروّج لخطابهم. وربما تبدو مسؤولية الشعر ثانوية أمام مسؤولية الفكر في كتابة فقه جديد للدين؛ قادر على ترتيب شؤون الحياة المعاصرة عبر طرح أسئلة جديدة أو طرح إجابات جديدة للأسئلة القديمة تناسب الوضع الحضاري والروحي للإنسان الحديث. إذ يقع السؤال حول تحريم الخمر ونبذه مثالا لأسئلة لا تنتهي متعلقة بالعلاقة بين السماء والأرض، لمراجعة سياقات تأويل النصوص ومسارها التاريخي وشروطه العامة والخاصة، لعزل ما دخل وتداخل في الدين وافترض ضمن مقامه وهو ليس أصل فيه.

إذن، كيف يمكن للإنسان أن يعقل أن السماء كورت من أجل اغتصاب الأرض عبر تدشين الدين على أنّه تقنية عقاب، وهل للأسئلة من جدوى في تعديل مسار ما يسمى الحقيقة؟ :

" لم أكن أصدّق
أنَّ السماء كوِّرت لكي تغتصب الأرض ،
ولم أعد أعرف
من أيّ غصنٍ تجيء هذه الثمرة ،
أو من أيّ فمٍ

ينزل في أذنيّ صوتُ السماء ؟
وماذا أقول عن خوذةٍ
تؤكّد أنّها وردةٌ
وعن بندقيّة
تبشّر أنّها شجرة من أشجار الجنّة ؟
وكيف أشرح لماء التاريخ
هذا الإنسانَ – هذا الطينَ الإلهيَّ
الذي يَحدُّه الرملُ والتوهّم ؟
وما دمت أيّها الأفق ، لا تعرفُ
أن تجيب عن أسئلتي
فسوف أُعطيك اسماً آخر "(٣١)

لا شيء أكثر من التأويلات العنيفة للدين وما يندرج في خصوصه قد جعلت من هذه الأسئلة بهذا القدر من المرارة، كلّ من يتساهل في أمر الدنيا رجاء في الآخرة لا يتورّع من تحويلها إلى جحيم، تطوّع للانتماء إلى منظمات بشرية تدّعي حماية الله من بشر آخرين، فأصبح الدين أكبر ذنب يمكن أن يحمله الإنسان اليوم.

وليس ثمة من يملك إجابة لهذه الأسئلة الراهنة، التي اشتبكت في واقع غاية في التعقيد، حين تخلّى الإنسان عن عقله بوصفه سلعة بائرة لا قيمة لها، وهو يقتل طمعا في جنّة متخيَّلة، على مقاسات القتلة.

يقول :

" أقول في نفسي : متى نعرف الصمت ؟ وأتساءل : هل
تصمت الجنة؟ هل تصمت النار؟ أهناك من يجرؤ على
الفتوى ؟ "(٣٢)

لا يساء للشعراء إلّا حين يتكلم في حضرتهم، الضجيج عدّو الشاعر، فينبري متسائلا، عن إمكانية إسكات معارك تقسيم السماء، ويبدو السؤال هو شراسة استثنائية صالحة في توريط نفوسنا بمثل هذه الأسئلة.

ثم من يملك جرأة السؤال ليجعل الإقامة على الأرض ممكنة من جديد :

" – من يجرؤ أن يرى كنيسةً بين فكّي حوت ؟
من يجرؤ أن يضع كنيساً أو جامعاً تحت المجهر ؟ سألتُ في
مخيّلتي، شاعرا لبنانيّا كبيرا وشعبيّا، ولد ومات في المكسيك ،
حدّثني عنه قيصر عفيف . وسمعتُ جوابه، في مخيّلتي أيضا :
–'' من أجلهِ، نجرؤ على افتتاح عرس الأرض، بالرقص على
جثّة السماء ''

- لكن إلى من تشير هذه الهاء المستترة ؟
- إلى حلبة هذيان أعمى . وإليها نقودك أيّها العصر "(٣٣)

يتلمّس بهذين السؤالين وضاعة استخدام الدين، دين الجامع ودين الكنيسة، إذ تقع خيانته في كلّ مرّة وتحريضه بوصفه صلة تثوير مناسبة في سبيل تدبير مصالحهم على هذه الأرض.

ولأنّ الدين رجل، بمعنى أنّه احتُكر قراءة وتفسيرا وتأويلا وتشريعا وأحكاما من قبل ذكور وللذكور، فكان مطلقا في حدود سلطته هو، ومن ثم أوجد لنفسه الحق في التفكير لا عن الرجل فحسب، بل عن المرأة، أيضا، ومن دون استشارة أحد :

" أيّها الذكرُ المتربّع في معجم الوحيْ، من أنت ؟

إخلعْ ثياب السماء ، وجِئني

في ثياب الطبيعة ،

لا نشوةٌ ، لا كتابْ

غير هذا التراب "(٣٤)

من، هنا، إنكارية ساخرة، يحاول بها إعادة موضعة القيم، التي تمّ بوساطتها تصنيف السماء والواقع، على نحو سلطوي ومنحاز وأبعد ما يكون عن العدل والحقيقة، وربّما منذ وقوع الوحي. إلّا أنّ ذلك لا يعني الشاعر، فهو ابن الارض ولا يجد نفسه مدينا لأي فكرة تسعى في اقصائها أو تعطيلها.

يقول :

" أيّتها الجدّة الطيّبة

ما هذا السرّ الذي يغلب الشَّرع ؟ صدقتِ

لا بالشّرع يُفسّر الكونُ بل بالحبّ "(٣٥)

كأنّ الحبّ هو الشرع الطبيعي، إلّا أنّ هذه الإمكانية تعوّقت في يد المتديّنين وإن ادّعوا بأنّ الحب هو البعد الجوهري في أديانهم، ذلك بسبب النزعة التنافسية للإنسان، فهو كائن تنافسي في طبعه حتى في طريقه إلى الله لا يتورّع من إزاحة غيره. مسندا إجابة السؤال إلى الطبيعة البشرية لا إلى احترازات وتعاليم تنشط ضد هذه الطبيعة أولا.

ومن أجل أن يحفظ البشر كرامة أديانهم، حوّلوا الأرض إلى مقبرة والسماء إلى سجن :

" هل نقول، إذا، طوبى للسماوات التي لا يرويها هي

أيضا إلا دم الأرض ؟ وهل نقول : طوبى لهذه الأرض

التي لا تقدر، احتفاءً بالسّماوات، إلا أن تكون مقبرةً ؟ "(٣٦)

يحمل السؤالان شراسة المشهد الواقعي الذي يجمع بين الأرض التي هي مجال ما هو بشري والسماء التي هي بيت الإله أو أفقه، وقد تأسست هذه العلاقة على مشاعر الخوف أو الطمع أو الزهد في الحياة. وليس هناك ما هو أغرب من الموت دفاعا عن السماء التي ابتكرت هذا الذي يخوض حروبه في سبيلها.

ويتساءل أدونيس عن واقعية التلازم بين المقدّس والعنف، كاتبا :

" ما هذه الآلة – الإله؟

أكلّما ازدادت الأمكنة قداسةً ازدادت عنفا ؟ "(٣٧)

وهذا السؤال مطروح للنقاش من وجهات نظر نفسية واجتماعية وتاريخية، وهو راهن ولافت، وهذه المصاحبة إن وقعت فهي متأتية من ادّعائها المتطرِّف بامتلاك الحقيقة، فأنّ حماستها في تصاعد مستمر لحماية أحقيتها في سيادة العالم.

يقول :

" الأرض رحمةٌ، والتراب هو الأخير والأوّل .

لماذا إذاً تشعوذ الكتب ؟ لماذا يوضع لكلّ حرفٍ قيدٌ ،
ولكلّ إنسانٍ لجامٌ ؟
لماذا لا تُرى السماء إلا مملوكةً وموسومة وموشومة
ومحروسة ومسوّرة ؟ أهي زريبةٌ للغة ؟
أهي خزانةٌ لذهب النبوّات ؟ "(٣٨)

يسحبنا كل سؤال من هذه الأسئلة إلى أسئلة أخرى لا تكاد تقف، إذ تطرح مشكلة الاستيلاء على السماء من قبل البشر، وسلبها من أي وجود موضوعي، بعدما تم السكوت عن أصالتها الرمزية واستثمارها ايديولوجيا وتجاريا.
وهكذا نجحوا في تفريغها من صياغاتها الرائعة وألبسوها ما ضاق أو عرض من المعاني التي افتعلوا مناسبتها وضمن أفق ديني حصرا

من المسائل التي التفت إليها أدونيس بالسؤال، مسألة الحجاب(حجاب المرأة) التي غالبا ما تثار في نطاق ديني، وإن لم تكن من طبيعة دينية خالصة.، فهو قديما كان "علامة انتماء طبقي "(٣٩) لتمييز الحرائر عن المملوكات (٤٠)، ولم يكن بالشكل الذي تفرضه الجهات الأصولية اليوم، لغايات إيديولوجية اجمالا؛ فإنّ " التمسك بالحجاب يكشف عن استراتيجية سياسية اجتماعية تهدف إلى أن تربط الحاضر بماض متوهَّم، دينيا، بحيث يظل حاضرا في الممارسة، وفي الذاكرة الجماعية. ويشير ارتباطه بتأويل متعسِّف وضيق وحاد لبعض النصوص الدينية "(٤١) ، ومن هي أيضا إشارة صاخبة على " انتصار الذكورة–الأبوّة "(٤٢) في المجتمع، عبر تجريد الأنثى من هويتها الطبيعية وتكميمها جسديا ومن ثم نفسيا وفكريا، ليضمن هيمنته على نحو مطلق.

يقول أدونيس بلسان محجّبات يقفن حول تمثال المسيح المحجّب :

" امرأة ٣: لكن أريد أن أسأل ''المسيح المحجّب''
بماذا تنبّأ الحجاب ؟
امرأة ١: رائحة كبريت في الحجاب، رائحة
فرْج. رائحة منيّ. رائحة سرير . رائحة لغة
داخل اللغة. رائحة إيديولوجية .
امرأة ٢: لماذا هذه الأرض الأمّ لا تقبلني
بين أحضانها إلّا محجّبة ؟
أ لأنني في ذلك رمز جمال أرضيّ ضدّ
جمال الألوهة ؟
ألهذا يجب أن أحجب عن العين
اتّقاءً لفتنة النظر، وللغواية ؟ "(٤٣)

السؤال بمجرده هو إرباك لهذه المنظومة الأخلاقية– الدينية، التي تتعالى على السؤال دوما، والسؤال عن جدوى الحجاب، هو كشف نفسي للأصوليات التي لا تريد أن تنزاح صورة المرأة عن كونها غرضا أو شيئا تابعا للرجل ومن ثم له الحق الأخلاقي والشرعي في إظهارها بالشكل الذي يراه ملائما. فمتى ما ادعى بضرورة

تحجيبها جسديا، قلّل فرص حضورها واقعيا وضاعف حظوظه هو. مع أنّها كلّما بالغت في حماية جسدها بالقماش كلّما تحولت إلى محطة جذب جنسي للآخر، وهل الحجاب هو الأداة المناسبة لحراسة الجسد وردع الآخر؟ وإذا كان الدين لا يكفي المؤمن الذي يفرض الحجاب شرّ الوقوع في الخطيئة، هل ستكفيه قطعة قماش من سقوطه؟

يقول :

" كانت تتحدّث، بشجاعة واثقة . وكانت رفيقتها تُصغي

إليها، وفي عينيها يسبحُ غزالان طائران .

- ولماذا هذا الحجاب ؟
- حجاب العودة إلى البيت . خصوصا في اللّيل .

التقاليد سجنٌ داخل السجن "(٤٤)

لا يمكن لمن يملك عقلا حرّا أن يؤمن بخرقة، وهذا ما يفضحه السؤال، إلّا أنّ ارتداء الحجاب (ليلا) هو نوع من الخضوع المخفّف أمام تلك السجون.

إذاً، كيف بمن تغطي شعرها ووجها معا ؟

يقول :

" اقتربي ، أيّتها الطالعة المحجّبة، أما قرأتِ : '' أوّل المحبّة

معنى أبداه الله سمّاه حُسنا . ثم أبدى شخصا ألبسه ذلك

المعنى، وسماه حَسَنا، ثم قابل الحسن بالحبّ،

والمُستحسِن بالمحبّ، والمستحسَن بالمحبوب ؟ "(٤٥)

" الوجه أوّل الإنسان، كيف حدث أن صار الوجه عندنا آخر المرأة "(٤٦) ؛ لأنّ الوجه فتنة، ومصدر إغواء وإلهاء، وليس أهون من وضع أحاديث وتلفيق روايات في ذلك، ماذا يبقى، إذًا، من المرأة التي تحجب وجهها؟ ما يبقى هو جاهزيتها التناسلية وهو أمر حيواني محض، بعيد عن الهوية الإنسانية وادعاءات الفرادة، فحالما تغيّب وجهها ستحكم بالضرورة والفعل على نفسها بالنفي الكلّي، وتحوّلها إلى أي شيء آخر، عدا الإنسان. فالسؤال هنا، هو دعوة ملحّة لرجم قراءات الظل للدين، وصداقته من حيث هو احتمال نحو الحياة لا ضدّها، ومن دون أي تمييز جنساني أو أخلاقي بين البشر.

خاتمة :

. حاول أدونيس عبر مساءلة الدين التنبيه إلى جوهر هذه الفكرة وسموها بوصفها منطلقا رحبا وحرّا في ترتيب علاقات البشر مع الغيب.

. الدين هو من أكثر الأسئلة التي تدعونا لتجديد التفكير في أفقها؛ فإنّ استدعاء هذا السؤال من جديد ضرورة قصوى في ثقافتنا.

. كل شعر أصيل ينبغي أن يلتفت من زاوية نظره الخاصة لموضوع الدين بوصفه سؤالا.

الهوامش:

[١]) البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ميرتشيا إلياده، ترجمة وتقديم: د.سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت. لبنان، ط١، ٢٠٠٧م،٧٧

[٢]) أدونيس/الحوارات الكاملة، بدايات للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، ط١، ٢٠٠٥م، ج١، ٢٤٥

[٣]) الشعور المأساوي بالحياة، ميغيل ده أونامونو، تر: علي ابراهيم اشقر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥م، ٢٠٩

[٤]) تطور الفكر الديني الغربي في الأسس والتطبيقات، د. حسن حنفي، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع- معهد المعارف الحكمية، ط١، ٢٠٠٤م، ٣٢٢

[٥]) الدين في منظور يونغ/عرض لما كتبه يونغ في المسألة الدينية، كارل يونغ، اعداد وعرض: نها خياطة، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط١، ٢٠٠٢م، ٥٠

[٦]) الأنثروبولوجيا الثقافية، محمد الخطيب، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، سورية. دمشق ط٢، ٢٠٠٨م، ٥٣

[٧]) السابق نفسه، ٥٤

[٨]) العالمية الاسلامية الثانية/جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، محمد أبوالقاسم حاج حمد، دار الساقي، بيروت. لبنان، ط٣، ٢٠١٢م، ٧٢٤

[٩]) الثابت والمتحول، بحث في الإبداع والاتباع عند العرب،أدونيس، دار الساقي، بيرت.لبنان، ط٨، ٢٠٠٢م، ج٣، ٢٢٠

[١٠]) الأعمال الشعرية الكاملة،أدونيس، دار الساقي، بيروت. لبنان، ط١، ٢٠٠١٤م،ج٧، ١١٦

[١١]) المصدر نفسه،ج٦، ١٣٠

[١٢]) الأعمال الشعرية الكاملة،ج٥، ٤٤٤

[١٣]) الانثروبولوجيا الثقافية، ٥٤

[١٤]) الأعمال الشعرية الكاملة،ج٥، ٤٥٢

[١٥]) الشعور المأساوي بالحياة، ٢٦١

[١٦]) الأعمال الشعرية الكاملة،ج٨، ١٧٠

[١٧]) المصدر نفسه،ج٨، ١٥٨

[١٨]) المصدر نفسه،ج١، ١٧٣

[١٩]) الأعمال الشعرية الكاملة،ج٦، ٩٢

[٢٠]) المصدر نفسه،ج٣، ٣٤٣

[٢١]) ينظر: الثابت والمتحول، بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، ج٣، ٢٢١

[٢٢]) السابق نفسه،ج٤، ٤٢٦-٤٢٧

[٢٣]) الأعمال الشعرية الكاملة،ج٦، ٤٠

[٢٤]) زوكالو،أدونيس، دار الساقي، بيروت.لبنان، ط١، ٢٠١٤م، ١٠

[٢٥]) الأعمال الشعرية الكاملة،ج٧، ٤٤٠

[٢٦]) المصدر نفسه،ج٧، ١٧٠

[٢٧]) المصدر نفسه،ج٦، ٤٣

[٢٨]) الأعمال الشعريّة الكاملة ،ج٧، ٣٤٦

[٢٩]) المصدر نفسه،ج١، ٤١٠

[٣٠]) الأعمال الشعرية الكاملة،ج٨، ٣٠

[٣١]) المصدر نفسه،ج٧، ٢٨٥-٢٨٦

[٣٢]) المصدر نفسه،ج٧، ١٣٧

[٣٣]) زوكالو، ٧٠

[٣٤]) الأعمال الشعرية الكاملة،ج٦، ٤٩٢

[٣٥]) المصدر نفسه،ج٤، ٢٩٦-٢٩٧

[٣٦]) المصدر نفسه،ج٨، ٤٠٧

[٣٧]) المصدر نفسه،ج٨، ٣٥٧

[٣٨]) المصدر نفسه،ج٨، ٤٣٦

[٣٩]) بنيان الفحولة/أبحاث في المذكر والمؤنث، د.رجاء بن سلامة، دار بترا_ دار ورد للنشر والتوزيع، سوريا.دمشق،ط١، ٢٠٠٥م، ٦٧

[٤٠]) المصدر نفسه، ٦٧

[٤١]) المحيط الأسود، أدونيس، دار الساقي، بيروت. لبنان، ط١، ٢٠٠٥م، ٩٧

[٤٢]) المصدر نفسه، ٩٧

[٤٣]) المصدر نفسه، ج٨، ٤٣

[٤٤]) المصدر نفسه،ج٧، ١٤٢

٤٥) المصدر نفسه،ج٣، ٣٥٢- ٣٥٣

٤٦) موسيقى الحوت الأزرق(الهوية،الكتابة،العنف)، أدونيس، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت. لبنان، ط١، ٢٠٠٢م، ٢٥٦

المصادر والمراجع :

. أدونيس/الحوارات الكاملة، بدايات للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، ط١، ٢٠٠٥م.

. الأعمال الشعرية الكاملة،أدونيس، دار الساقي، بيروت. لبنان، ط١، ٢٠٠١٤م.

. الأنثروبولوجيا الثقافية، محمد الخطيب، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، سورية. دمشق ط٢، ٢٠٠٨م.

. البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ميرتشيا إلياده، ترجمة وتقديم: د.سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت. لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.

. بنيان الفحولة/أبحاث في المذكر والمؤنث، د.رجاء بن سلامة، دار بترا_ دار ورد للنشر والتوزيع، سوريا.دمشق،ط١، ٢٠٠٥م.

. تطور الفكر الديني الغربي في الأسس والتطبيقات، د. حسن حنفي، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع- معهد المعارف الحكمية، ط١، ٢٠٠٤م.

. الثابت والمتحول، بحث في الإبداع والاتباع عند العرب،أدونيس، دار الساقي، بيرت.لبنان، ط٨، ٢٠٠٢م.

. الدين في منظور يونغ/عرض لما كتبه يونغ في المسألة الدينية، كارل يونغ، اعداد وعرض: نها خياطة، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط١، ٢٠٠٢م.

. زوكالو،أدونيس، دار الساقي، بيروت.لبنان، ط١، ٢٠١٤م.

. الشعور المأساوي بالحياة، ميغيل ده أونامونو، تر: علي ابراهيم اشقر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥م.

. العالمية الاسلامية الثانية/جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، محمد أبوالقاسم حاج حمد، دار الساقي، بيروت. لبنان، ط٣، ٢٠١٢م.

. المحيط الأسود، أدونيس، دار الساقي، بيروت. لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

. موسيقى الحوت الأزرق(الهوية،الكتابة،العنف)، أدونيس، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت. لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.